بمناسبة رحيل (فائق حمد) مؤخرا

المعلّم

د. خالد السلطاني
معمار، واكاديمي عراقي

ربما لا يعرف الكثيرون (فائق حمد) : المعلم والتربوي بامتياز ، الذي آلمنا رحيله قبل فترة وجيزة ؛ ذلك لان هذا الانسان المتنور ، الزاهد والمتواضع ، ظل بعيدا عن دوائر ضوء الشهرة والاعلام ، حاله حال الاف من امثاله : الرجال الوطنيين المخلصين الاكفاء ، الذين تفخر البلاد بهم وبانجازاتهم ، قانعا ومكتفيا بعمله المميز : الانساني والحضاري في آن : معلم الارياف العتيد !

اذ منح هذا الانسان جهده الفائق ، وعمله المثابر لمهنته التعليمية التى كرس لها حياته باكملها : معلما ناشرا للمعرفة ، ومروجا للثقافة ، وداعيا للحكمة وحصافة الرأي في اوساط اجتماعية معينة ، احس بفطرته الانسانية انها بداخلها تواقة للعلم والمعرفة ، ومتطلعة لتغيير واقعها البائس المزري .

انخرط (فائق حمد) منذ البداية في المشروع التنويري الذي اقترحه التربوي (صادق البصام) لوزارة المعارف حينذاك في بداية الاربعينيات من القرن الماضي ، بوجوب اعداد (معلمين اساسين)، تكون مهمتهم العمل في الارياف والقرى النائية ، بغية التعجيل في ازالة ومحوالامية ، تلك الافة التى بسببها لا يمكن باي حال من الاحوال الكلام عن تقدم بلد ، او نهضة امة . وفي حينها أقترح من اجل النهوض بتلك المهام ، التعجيل في تأسيس (دور المعلمين الريفية) في مناطق مختلفة من العراق ، يكون هدفها ومبتغاها تأهيل خريجي المدارس الابتدائية البالغين ، من خلال تعريضهم لدروس نظرية وعملية ، مكثفة ومتنوعة كفيلة بمنحهم اساسيات واصول العملية التربوية وتعريفهم على طرق ازالة الامية واساليب التعليم الاولي . وهكذا تم تأسيس (دار المعلمين الريفية) في كل من ابي غريب والزعفرانية ، وهما منطقتان زراعيتان كانتا في حينها نموذجتين .

بعد تخرجه مباشرة من دار المعلمين الريفية في ابي غريب ، في منتصف الاربعينات ، باشر (فائق حمد) عمله معلما في الارياف النائية(بالصويرة) التابعة لـ(لواء الكوت) . لم تكن مهمته بسيطة ، كما لم تكن واضحة ؛ بيد انه كان ينبغي عليه ان يجتهد ليوظف معلوماته البسيطة المكتسبة سابقاً وتحويلها الى عمل تربوي فعلي ومؤثر.

وقتذاك ، في الاربعينيات لم تكن ثمة ابنية خاصة تشغلها المدارس الريفية ؛ كان هناك تجميع عشوائي لفضاءات معمولة بمواد انشائية بسيطة ، تختلف (فورمات) تشكيلاتها من قرية الى اخرى . بالطبع ، لم تكن تلك (المنشآت) المتواضعة مزودة لا بالماء ولا بالكهرباء ، ولا باي نوع من الخدمات الضرورية الاخرى التى يفترض حضورها ليتم انجاز حسن عمل العملية التدريسية وادائها. ورغم وجود تلك (النواقص) الكثيرة فقد كان المناخ التعليمي في تلك (المدارس) في الاغلب الاعم ، مناخاً تربويا صحياً وحيوياً وسليما ، يغذيه ويديمه الاحساس العميق بالمسؤولية المهنية والواجب الوطني ، ذلك الاحساس النبيل الذي رفع لواءه عاليا المعلمون المشرفون على اعداد وتطبيق المنهاج التربوي الخاص بتعليم اطفال الارياف .

شعر (فائق حمد) منذ البداية ان مهنته الجديدة ، عدا كونها مصدراً لتوفيربعض حاجاته المعاشية وتلبية متطلباتها ، فانها في جانب اخر بمقدورها ان تمنحه شعورا باهمية وخصوصية المهنة التى يمارسها ، وهي نقل المعرفة (ضالة المؤمن ، كما توصف)الى اطفال جلهم تواق لتحصيلها وبلوغها ، كما اعطته امكانية متابعة نتائج ذلك النقل المعرفي في احداث تغييرات جذرية وملموسة في ذهنية وسلوكية تلاميذه الصغار .

في ظلال طبيعة العمل التعليمي ذاك ، وصعوباته العديدة ، لم يكن سهلاً التغاضي عن ظهور عقبات وعراقيل كثيرة اكتنفت سير العملية التعليمية ؛ فليس كل المعلمين مستعدين لمثل تلك التضحيات ، كما لم يكن كلهم مدركاً وحتى مقتنعاً باهمية الدور التربوي الذي يؤدونه . وفي غياب اية محفزات مادية او معنوية ، كان استمرار العمل في المدارس الريفية والديمومة عليه يمثل مأثرة حقيقية ، لكنها مأثرة لا احد يقدرها ، كما لا احد مهتم بها . لكن (فائقاً) وبعض زملائه المتنورين وعوا طبيعة العمل الذي عهد اليهم ، العمل الذي بمقدوره ان ينقل المرء من الظلمات الى النور ، من عتمة واسر الامية الى رحاب المعرفة ، وعمادها القدرة على القراءة ! ولعل هذا الهاجس الادراكي لطبيعة شغله هو الذي يفسر لنا ذلك التماهي بين الرجل ومهنته ، تماهياًوتطابقاً ظلا متلازمين ومتحدين طويلا ، وبات يعرف بهما الواحد الاخر : (فائق) -المعلم ؛ و(المعلم) - فائق ! لم يقتصر عمل (المعلم فائق) (او كما يحلو لاصدقائه ومعارفه ان يدعوه بـ (الملا) ، حبا واحتراماً لعمله مع الصغار)لم يقتصر على اداء واجبه التعليمي ، بمجرد انتهاء الدوام الرسمي في المدرسة التى يعمل فيها ، كان عليه ان يثبت لجميع المتشككين بعمله ووظيفته (وما اكثرهم ابان تلك الحقب الزمنية البعيدة ، زمن سيطرة الجهل وانتشار الامية) ان يثبت لهم صدقية واجبه التنويري كمعلم ، وكقدوة ، وكمرشد نحو رحاب عالم آخر مغاير تماما عن عالمهم المثقل بالظلم والظلام ، عالم يعج مناخه بالمعارف المتنوعة ، وينعم افراده بمزايا البيئات الصحية التى يوفرها ، ويمنح شخوصه خيرات وعطاء نتائج التقدم العلمي وثماره . ولهذا فقد انتقل بسكناه مع عائلته الى اعماق الريف ، حيث تقع مدارسه العديدة ، يزور اماكن تجمعات الريفيين : اباء تلامذته الصغار ، مفسراً لهم اهمية التعليم ودوره في حياة مستقبل ابنائهم ، ومشجعا قرارهم الحصيف بوجوب ارسال اولادهم : بنينهم وبناتهم الى مدرسته .

كان يؤمن بان زياراته العديدة واحاديثه الشخصية مع القرويين ، وايجاد آليات التواصل معهم ، يمليها واجبه الوطني والانساني ، اكثر بكثير من كونها نابعة من استحقاقات السلوك الوظيفي ومتطلباته ، فقد كان يعتبر نفسه جزءا من المشروع الثقافي والحضاري ، الذي تعرف على بعض جوانبه اثناء دراسته في (دار المعلمين الريفية) ؛ ذلك المشروع الذي طبع شخصيته بطابع خاص ، وبات تحقيق اهدافه يمثل لديه ، امرا لازماً ومشروعاً . كما كان يدرك ايضاً ، بان سلوكه الشخصي ونهج تعامله مع تلاميذه وطريقة تعاطيه مع الاخرين ، وحتى اسلوب اختيارمفردات كلامه وكيفية النطق بها ، ستكون (موضوعا) لاهتمام طلابه والقرويين المحيطين به ؛ ولهذا فقد ارتقى ، كممثل ومروج وداع لمدونات ثقافية وحضارية تقدمية مغايرة ، ارتقى بمظهره وملبسه وحديثه الى مستوى من السلوك العالي ، يتماثل مستواه مع نوعية القيم والمبادئ السامية التى يطمح الى تحقيقها.

ويتذكر فلاحو (البدعة) و (الجوز) و(الزبيدية) ، وغير ذلك من القرى والقصبات التى عمل في مدارسها (فائق حمد) ، يتذكرون هيئته المميزة واناقة ملبسه ونظافتها ، والشكل (الحداثي) لربطة عنقه المعبرة ؛ فضلا عن طريقة كلامه الهادئة والواضحة والمقنعة التى تشي مفرداتها بصدقية واخلاص عميقين !

كان (فائق حمد) ، وهو الذي عمل سنين كثيرة في الارياف ، يشعر بانه منتم الى (المدينة) ، واجوائها وذهنيتها ؛ ولم ينجر تحت وطأة التقاليد المألوفة والاعراف السائدة الى سلوكية الريفي ، المعطل الارادة والقانع بسلبية ، لمصيره المأساوي . كان يعد نفسه مبعوثا لقيم وسلوكية المدينة الحاضرة ، المسكون بهاجس التغيير والطامح الى التقدم والحريص على توظيف ثمار النجاحات العلمية والتكنولوجية ، والتائق لجعلها جزءا من صميم وسائل حياته المعاشية ، وما يصاحب ذلك من تفتح فكري واهتمام عالٍ في الثقافة والتمتع بنعم انجازاتها .

اي انه سعى وراء حضوره المميز في البيئة الريفية ، ان يستذكر الاخرون من خلاله مزايا المشهد الحضري ، وان يتعرفوا على افضليات ذلك المشهد ، ويتلمسوا انجازاته الحقيقية ، بعبارة اخرى ، حرص (فائق حمد (بسلوكيته المدينية ، ذات النفس) المتروبوليتاني (العميق ان يجسد احسن ما يمكن ان يتصف به سكنة الحواضرالكبرى ، وما يتميزون به من ثقافات رفيعة .

ومع ان الحياة في الارياف والعمل فيها (ولاسيما ارياف الاربعينيات والخمسينيات)لم يكن شأناً مغريا ، كما لم يكن امراً سهلا اطلاقاً ؛ فقد داوم) فائق حمد (في وظيفته ، واستمر يعمل معلماً ومديراً لمدارس الارياف لسنين عديدة ؛ رغم انه حصل ضمن معيار التدرج الوظيفي ، على عشرة اضعاف النقاط الادارية التى تتيح له الانتقال بسهولة الى المدينة . لقد وجد في عمله الريفي : كمعلم وتربوي مناسبة لتحقيق مشروع حضاري وانساني معاً ، مشروع يتصادى ويتناغم مع طبيعة رسالته الوطنية في رؤية بلده - العراق ، بلدا متقدماً ، ينعم بالرفاهية ، ويستمتع سكانه من الريف والحضر بخيراته الكثيرة .

ربما يرى البعض في الكتابة ، الان ، عن مناقب) معلم ريفي (ترفاً ثقافياً ، واهتماما في غير زمانه ومكانه ،لا يتلاءم موضوعه مع ما يحدث الان في العراق من رؤية دوران (دولاب الدم في بغداد) وفقا لتعبير مظفر النواب ، وهو يزهق الارواح ، ويقضي على الابرياء ، او من متابعة مشاهد القتل المجاني واستلاب حقوق الغير بدون وجه حق ، وغير ذلك من الموبقات الرذيلة التى تطالعنا اخبارها ليل نهار . لكننا نعي بان اثار الخراب التام والدمار الشامل اللذين لحقا بالبلد وبرجاله وتطلعاته وآماله ، من قبل الحكم الصدامي المقيت ودكتاتوريته المفزعة ونهجه التوتاليتاري البغيض ، هي المسؤولة مسؤولية تامة عن اختفاء ظاهرة (فائق حمد) وامثاله وتغيبهم من مشهد الحياة الادارية والثقافية .؛ الامر الذي فتح الباب واسعاً امام قوى الردة والرذيلة والاجرام لتستفيد وتستعيد (مناخات) البيئة الاجرامية التى سبق وان رعاها ووفر ارضيتها وساهم في انتشارها النظام البائد . لقد اعطت أجراءات الافساد والازاحة والهدم المبرمج ، على مدى عشرات السنين ، التي دأب عليها نظام حكم البعثين المدان نتائجها المرعبة و (ثمارها) المحرمة في تقويض ذلك الارث الفياض والكريم ، والعمل على اتلاف وازالة تلك الجهود الخارقة والخيرة التي بذلها (فائق حمد) والالاف من امثاله : الرجال والنساء الزاهدين ، والمتواضعين والحضاريين ، المخلصين ، ناكري ذاتهم من اجل تقدم بلدهم وازدهاره . ان حصيلة سلوكيات تلك العمليات الوحشية وعواقب الاجراءات الفاسدة ، هي التى اوصلتنا الى مثل هذه الحالة التى نمر بها الان : غياب تام بالاحساس لمواضيع الهم الوطني ، وحضور وقح لقوى الظلام والعبثية .

كتب مرة ، (ادورد سعيد) عن دور المثقف قائلا (.. اريد ان اشدد على ان المثقف فرد له دوره العمومي المحدد في المجتمع ، والذي لا يمكن اختزاله ببساطة الى وظيفة لا وجه لها ، الى مجرد فرد مختص منشغل تماما بعمله . ان الحقيقة المركزية بالنسبة الي كما أظن ، هي ان المثقف فرد منح قدرة على تمثيل رسالة او وجهة نظر او موقف او فلسفة او رأي ، وتجسيدها والنطق بها امام جمهور معين ومن اجله .)

اعتقد اننا لو ابدلنا كلمة (مثقف) في مقولة (ادورد سعيد) بـ (المعلم ، كالمعلم فائق) فان الخطاب (الادواردوي) يظل يحتفظ بمعناه تماما ؛

هذا ، في الاقل ، ماأراه .. انا !

وداعا ايها الرجل النبيل ،

صدر عن (المدى)

أوهام المحققين

نظرات في تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف

محمد حسين الاعرجي

لا أظنُّ أنَّ هنالك أحداً من أساتذة الأدب العربيِّ،أومن طلبته في جامعات الوطن العربيِّ من لم يسمع بالأستاذ الجليل الدكتور شوقي ضيف،هذا إذا لم يقدر للأستاذ أو للطالب أن يقرأ شيئاً من كتبه القيِّمة،وأنّى له ألاّ يسمع به وكتبه تكاد تتوزع فروع هذا الأدب جميعاً؟ فهو يكتب في الدراسات القرآنيّة،ويؤرخ لتطور البلاغة العربيّة،ويبحث في المدارس النحويّة،ويعلّم الناس أصول البحث الأدبي ومناهجه،ثم يحدثهم عن هذا الأدب حديثاً يكاد يكون. كما يقول المثل العبّاسي. (من الخفّ إلى المقنعة):فيبدأ بالعصر الجاهلي،وينتهي به إلى البارودي،وأحمد شوقي،ثم لا يكفيه ذلك كلّه . وكأنّه قليلٌ على علمه وما هو بالقليل على مجمع . فيكتب في النقد،والمقامة،والترجمة الشخصيّة،والبطولة في الشعر العربي،هذا عدا ما حقّق من كتب التراث العربي،وعدا ما قدّم للمجمع اللغوي في القاهرة من بحوث. وهل أكثر من أن يكون الدكتور ضيف رئيساً لمجمع اللغة العربية في القاهرة ؟

وإذاً لو قلت إنّ أبا نواس كان ينظر إليه من سجف الغيب في قوله:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالَم في واحد

أقول: لوقلتَ إنّ أبا نواس كان ينظر إلى العلاّمة الجليل الأستاذ شوقي ضيف لما أبعدتَ، ولما جاوزتَ الحدّ. والعلاّمةُ ضيف. بعدَ هذا . أستاذٌ أساتيذ من وجهين:أحدهما أنّ كثيراً من أساتذة الجامعات العربيّة إن لم يكن كلّهم يفزعون إلى كتبه الواسعة الانتشار حين يكلّفون بتدريس هذه المادّة أو تلك إيثاراً للراحة مرّة،وحسن ظنّ بعلم الدكتور شوقي،وبسعة هذا العلم مرّةً أخرى. وأنا لا أنفي عنه سعة العلم هذه. وما ينبغي لمثلي أن يفعل . ولكنّني أنفي عنه الدقّة،وأنسب إليه العجلة،وهاتان الصفتان هما اللتان تدعوانني الآن أن أكتبَ هذه المقالة عمّا كتب. ذلك هو الوجه الأوّل في أنّه أستاذُ أساتيذ،فأمّا الوجه الآخر فهو أنّه تخرّجت على يديه في مشارق الأرض ومغاربها من العالم العربي طائفةٌ غير قليلة من حملة شهادات الدكتوراه ممن يزاولون الأستاذيّة في الجامعات العربيّة اليوم،وقبلَ اليوم،ومنهم في العراق من تلمذت لهم،ودرست بعض كتبه منسوبةً إليه وغير منسوبة عليهم. وأشهد شهادةً خالصةً لوجه الله أنّ طلبته الذين تلمذوا له يُجلّونه كثيراً حتى لقد بلغ هذا الإجلالُ الكثيرَ بالأستاذ الجليل الدكتور محسن غيّاض عجيل . وهو ممن تخرّج عليه . أن طبع رسالته الموسومة بـ:(شعر الشيعة في العصر العباسي الأوّل) فوصفه في الجملة التي أهدى بها الكتاب إليه بأنّه: (الإمام) .هذا ولم تكن كلمةُ الإمام يومذاك قد ابتُذلت كما هي مبتذلةٌ اليوم بحيث صار ينعت بها من لا يعرفُ من العلم إلاّ كتاب الطهارة ! وأريد أن أشهد أيضاً شهادةً خالصةً لوجه الله ولوجه التأريخ أنّني لم أرَ على من عرفتُ من هؤلاء الأساتذة من سيماء الغزارة في العلم،والتدقيق فيه . إلاّ من عصمه الجدّ منهم . ما يجعلني أفسّر تفسيراً مقبولاً كلَّ ذلك الإجلالَ الذي يتجاوز كثيراً مقدارَ اعتراف الطالب بفضل أستاذه. ولقد كنت أعزو أمرَ هذا الإجلال إلى كرم أخلاق أولئك الأساتذة من تلاميذه،لا سيّما أنّ بعضاً منهم كان ممن قدّرتُ لي واجباتُ الزمالة أن ألتقي بهم،فأفرح بلقياهم،وأنعم بسماحة أخلاقهم،وكرم خلالهم. أقول:كنت أعزوه إلى كرم أخلاقهم حتّى وقعت الواقعةُ التي ارتجّت لها حنايا جامعة بغداد. أمّا تلك الواقعة فهي أن عاد رجلٌ ممّن حصل على شهادة الدكتوراه تحت إشراف الدكتور شوقي ضيف . أطال اللهُ في عمره . إلى بغداد،وعيّن في إحدى جامعاتها.هذا الرجل اسمه سامي مكّي العاني،أمّا رسالته التي نال بها الدكتوراه فهي تحقيق كتاب: (دمية القصر وعُصرة أهل العصر) لأبي الحسن عليّ بن الحسن الباخرزي المتوفّى سنة:٤٦٧هـ مسبوقاً بدراسة تتناول عصر الكاتب . وهو العصر السلجوقيّ . وما إلى ذلك من حياة الباخرزي،ومنهجه في الكتاب،و...و....وبدا أنّ الأمر طبيعيٌ جداً:رجلٌ عاد من أمّ الدنيا:مصر فعُيّن في إحدى جامعات أمّ العراق:بغداد. وكان للحظّ بدواته،فمن بدواته السيّئة أن تجرّأ سامي مكّي العاني على طبع الجزء الأوّل من الدمية في مدينة النجف الأشرف بالعراق،وقُدّر لي يومذاك . وكنّا في أوائل السبعينيات من القرن الماضي . أن أقرأ الكتاب رغم أنّني كنتُ أعلم أنّ العلاّمة المرحوم محمد راغب الطبّاخ كان قد نشره عن نسخة غير تامّة في حلب سنة:١٩٣٠،وأنّ الأستاذ المرحوم عبد الفتّاح محمد الحلو قد أعاد نشره في مصر سنة:١٩٧١ .أقول قُدّر لي أن أقرأ الكتاب،وكان ممّا أطمعني في القراءة اسمُ المُشرف الذي هو الدكتور شوقي ضيف،ثم اسمٌ آخر ذكره في المقدّمة فقال: إنّه أعانه على تعيين بحور الشعر،وأعانه على أشياء أخرى.أمّا ذلك الاسم فهو ممّن أشرف عليهم الدكتور شوقي ضيف نفسه أيضاً أعني به الدكتور نوري حمودي القيسي.وكيف لا أطمعُ في قراءة كتاب اجتمع عليه ثلاثةُ دكاترة؟ وقرأتُ الكتاب فوجدتُ فيه وأعني في تحقيق الكتاب وليس في الدراسة،من عجائب الجهل ما كان من حقّه أن يكتب على غلافه: (تحقيق الدكتور أبي جهل)، وحسبُك من هذا أن يُعلّق المحقّق على بيت المتنبي: ولا برزن من الحمام مائلةً أوراكهنّ صقيلات العراقيب فيُفسّر العُرقوب بأنّه: (جبَل) دون أن يسأل نفسه عمّا إذا كان قد شهد التأريخ من يوم خلق حواء حتّى هذا اليوم امرأةً قد حملت جبلاً! وحسبُك أن يُشير إلى بيت من المقتضب . على سبيل المثال . فيقول:إنّه من البسيط،وهكذا. هذا وقد أعانه في تعيين البحور أمينُ المجمع العلمي العراقي،وعميد كليّة الآداب في جامعة بغداد الدكتور نوري حمودي القيسي!!! وفكّرتُ أن أنقد التحقيق فشرعتُ أكتب ملاحظاتي عليه فبلغت ستّين صفحةً وأنا بعدُ لم أصل إلى نصف ما طبعه من الكتاب،فأعرضتُ عن الكتابة بحسبان أنّني لو استمررتُ لكتبتُ كتاباً بحجم الدمية لن أجد من يثني عليّ به،ومن يثني على ناقد أبي جهل؟! ولكن كلّ هذا لم يكن من بدوات الحظ السيئة،لأنّ سوء الحظ الذي ارتجّت له حنايا جامعة بغداد . كما قلتُ . هو أن الدكتور يحيى الجبوري قد اكتشف أن حديث العاني الذي قدّم به: (دمية القصر...) عن العصر السلجوقي سياسةً،واجتماعاً،وأدباً مسلوخٌ من كتاب العلاّمة المغفور له الدكتور علي جواد الطاهر: (الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقيّ) فنشر ما اكتشفه في مجلّة العلاّمة الشيخ حمد الجاسر: (العرب). وما إن وصلت المجلّةُ إلى بغداد حتّى تألّفت لجنةٌ في جامعة بغداد تُحقّق في الأمر. وتساءل الناسُ يومئذ عن جدوى إعادة تحقيق كتاب يكون فيه التحقيق السابق خيراً من اللاحق،وتساءلوا عمّن أجاز الطالبَ على هذا التحقيق،وتلك الدراسة،فإذا كان أمرُ سرقة جزء كبير من الدراسة قد يفوت على المشرف واللجنة،فكيف يفوت عليهم أن يوازنوا بين تحقيق المرحوم الحلو المطبوع كتابه في القاهرة والرسالة التي بين أيديهم؟ ثم دع عنك كل هذا فكيف فات العلاّمة الأستاذ ضيف أن يعرف أن العرقوب . في بيت المتنبي الآنف الذكر . ليس جبلاً،وكيف فاته أن البحور لا تتداخل في أسمائها هذا التداخل؟تساءل الناس كلّ هذه الأسئلة ولم يقدح أحدٌ منهم في علم الدكتور شوقي ضيف،وإنّما كان قصارى ما قالوا:إنّ مشاغل الرجل العلميّة لا تمنحه الوقتَ الكافي للتدقيق في الرسائل التي يُشرف عليها.وإنّ عرض الدنيا قد يلجئه إلى قبوله.أمّا الخبثاء السيئو النيّات فقد قالوا:إنّ رسوم التسجيل في الجامعات المصريّة وفي طائفة غير قليلة من الجامعات الأوربيّة أغلى . في العادة . ممّا يتعلّمه الطالبُ،ولعلّ رسوم التسجيل على منح الطالب شهادةَ الجهل بامتياز تكون ربحاً مُضاعفاً على منحه شهادةَ العلم بدرجة أدنى من: (جيّد). فإذا زدتَ على الرسوم أنّ للمشرف أجراً يتقاضاه عن الإشراف وجدتَ أنّ خرزات السبحة قد اكتملت ثلاثاً وثلاثين لا تزيد ولا تنقص.أمّا شاهد هذه السبحة فهو أنّ (الراتب لا يكفي). ولكنّ مثل الدكتور العاني لا ينطبق على آخرين،وإلاّ كان الذي يقول هذا من الذين يبخسون الناس أشياءهم،ومن الذين يرون أنّ الناس إنّما تحتمل الغربةَ،وتُنفق الأموالَ فيها من أجل طلب الجهل المزكّى بشهادة علميّة. وأريد أن أدعَ كلّ هذا ؛لأفسّر قولي الذي سلف بأنّي

لا أنفي عنه سعة العلم،ولكنّني أنفي عنه الدقّة،والتثبّت،والتريّث فأقول:إذا كان المثل الذي سقته على إشرافه . وهو مثل خاص،ولعله خاص جداً . ممّا يمكن أن يختلف فيه الناس فلا أظنّهم يختلفون على ما سفّه به العلاّمة الراحل الدكتور مهدي المخزومي من آرائه في المدارس النحويّة.ولا أظنّهم يختلفون أيضاً إذا أنا عالجتُ بعضاً من كتاب واحد لم أتخيّره تخيّراً،وإنّما ألجأتني إلى مراجعته حاجةٌ.أمّا ذلك الكتاب فهو (تأريخ الأدب العربي،العصر العبّاسي الثاني) ولديّ منه الطبعة الأولى،دار المعارف،مصر،١٩٧٣ . وقبل أن أخوض في أمر الكتاب أريد أن أقول:إنّني لا أعرف أمّةً تعجّلت في كتابة تأريخها . وعدم عرفاني لا يعني عدم وجدانها . بمقدار ما تعجّلت الأمّةُ العربيّة.وليت تعجّلها كان في نشر مصادر هذا التأريخ،وتحقيقها.ولكن ذلك لم يحدث لا في التأريخ،ولا في تأريخ الأدب،ولا في سواهما.وإنّما كان ذلك في نشر الدراسة عن الشاعر قبل تحقيق ديوانه،وفي كتابة الرسالة عن الناثر قبل معرفة رسائله،وفي الحديث عن تأريخ الأدب وثلاثة أرباعه لم يُنشر على الناس وهكذا.وذلك حديثٌ لا أريد أن أفيضَ فيه لأنّني أمنّي النفس أن أتحدث يوماً ما عنه حديثاً برأسه. ولكن هذا لا يعفيني من أن أقول:إنّ طائفةً من المُستعربين والمستشرقين قد أدركت هذه الحقيقة بوجه وبآخر فجاءت كتبهم في تأريخ الأدب العربيّ أقرب إلى الفهرسة منها إلى الدراسة.هكذا كان فعل العلاّمةُ الجليل كارل بروكلمان في:(تأريخ الأدب العربي) وهكذا فعل الأستاذ الكبير فؤاد سزكين في: (تأريخ التراث العربي). وفعل ما يزيد على حسن فعلهما العلاّمة الجليل المغفور له أغا بزرگ الطهراني في: (الذريعة إلى تصانيف الشيعة). فإذا كان الجليلان:بروكلمان وسزكين قد عرفا ما في مكتبات العالم العامّة من مصادر هذا الأدب فدلاّنا عليه:فإن أغا بزرگ عليه رحمةُ الله عُنيَ بما في المكتبات الخاصّة ممّا لا يتهيّأ لأي أحد أن يطّلع عليه فعرّفنا به:فكان بذلك كتابه الضخم الفخم من الكنوز التي لا يستغني عنها باحث.وليس قليل الدلالة أن يكون كتاب الذريعة بأجزائه الخمسة عشر من مصادر الأستاذ سزكين في (تأريخ التراث العربي). قلتُ كلّ ذلك لأدلّ على ما أدركه أولئك الناس من صعوبة كتابة تأريخ الأدب العربي:إذ أنّ مؤرّخ الأدب لا يكفيه أن يعرف آثار العصر الذي يزعم أنّه يدرسه،وإنّما عليه أن يحدد اتّجاهاته مرصودةً رصداً تأريخياً لا تفوت منه شاردةٌ ولا واردة في تقديم الأهمّ على المُهمّ من هذا الأمر أو ذاك،ولا يعفيه من ذلك أنّه يتعرّض إلى قرون طويلة من النصّ على تأريخ بدء هذه الظاهرة الأدبيّة أو تلك،هذا فضلاً عن معرفة الناس الذين يؤرّخ لهم،والاطّلاع على آثارهم،وحيواتهم. وستقول لي:إنّها مهمّةٌ صعبةٌ.فأقول لك: بل صعبةٌ جداً،ولكن (من يخطب الحسناء يُعط مهرها)، وإلاّ فما كان أسهل على الدارس الجليل الدكتور ضيف أن يبدل بـ (تأريخ الأدب العربي،العصر العبّاسي الثاني) عنواناً آخر هو . على سبيل التمثيل . (دراسات في العصر العبّاسي الثاني)؟! وقل مثل هذا عن العصور التي سبقت مما أرخ له. أمّا وقد اختار الدكتور شوقي ضيف أن يكون كتابه تأريخ أدب يرجع إليه الدارس فيجد فيه الحقائق الأدبيّة كما وقعت،وكما هي فذلك ما عليه الأخذ والردّ. وإذا تعرّض الدكتور ضيف إلى مهمّة صعبة جداً . يجب أن نُكبّره عليها . اختارها هو بنفسه،وبلغ فيها من النجاح العاجل ما جعله أستاذ الأساتيذ.ولكن هذا لا يمنع . كما قلتُ . أن أراه قليل التثبّت والتريّث،لا يعطي للدقّة في الحكم وزناً مناسباً. وأريد أن أقول:إنّه لا يعنيني أن أتتبع الكتاب صفحةً صفحةً؛لأنّني لا أريد أن أؤلّف كراسةً،ولا كتاباً،ولأنّني لا أدّعي العلم أصلاً،ولكن أريد أن أنبّه إلى أنّ الكتاب . وهو الرابع في سلسلة الأدب العربي والكتاب برمّته يقع في عشرة أجزاء . لا يؤخذ على علاّته طلباً للراحة أو عملاً بحسن الظنّ،فأقول على سبيل التمثيل لا الحصر: إنّه يقول لك الدكتور شوقي ضيف (إنّ الأسرة المتوسّطة كان يكفيها خمسة وعشرون درهماً كأنّ نفقات اليوم المتوسّطة لا تحتاج إلى أكثر من درهم واحد...). هكذا قوّم مصاريف الأسرة المتوسّطة،ولي على هذا التقويم ملاحظاتٌ منها: أنّ الصيغة التي أورد بها تقويمه بدتْ من الثقة والثبات بحيث لا يملك القارئ إلاّ أن يطمئنّ إليه،وإذا كان ذلك من حقّ الباحث حين يطمئنّ فعلاً فإنّ ذلك لا يعود من حقّه حين يُقرّر هذه الحقيقة الخطيرة اعتماداً على خبر وردَ في: (مصارع العُشّاق). وما لمصارع العُشّاق وللحياة الاقتصادية؟! أقول ذلك لأنّ هنالك طريقاً أسهل وأدقّ وأوضح في تحديد مستوى المعيشة من طريق (مصارع العُشّاق) هو طريق كُتُب الحسبة،وطريق كتب الخراج:ففي هذين الطريقين نجتهد في معرفة ثمن الرغيف،ورطل اللحم،وصاع الدقيق،وما إلى ذلك ممّا يُهيّئ لنا صورةً قريبةً من الصواب عن مستوى المعيشة.ولكن الدكتور شوقي ضيف اختار طريقاً آخر هو طريق: (مصارع العُشّاق).وأريد أن أجاريه في اختياره أمتحن صحّةَ استنتاجاته فيه،فأجد جملةً من الحقائق أوّلها: أنّ الحُكم السابق الذي قرّره عن مستوى المعيشة قرّره وهو يتحدث عن بغداد،ولكننا حين نعود إلى الخبر نجد أنّه قد وقع في مكّة وليس في بغداد.ومن البديهيّات المعروفة أنّ مستوى المعيشة في حاضرة الخلافة العباسيّة لا بدّ أن يكون أعلى قليلاً ممّا هو عليه في الكوفة أو الأهواز أو مكّة أو سجستان،لا لشيء إلاّ لأنّها حاضرةٌ،وليست مصراً من الأمصار.ولو لم يكن في الحاضرة . أيّة حاضرة . إلاّ أن يتهافت الناس على السكن فيها لكان ذلك وحده كافياً أن يكون كراءُ الدور فيها أغلى ممّا هو في أي مصر آخر،ولكان كافياً أن يختلّ ميزانُ العرض والطلب ممّا يجعل الأسعار فيها أعلى قليلاً. وثانيهما أن الخبر يقول:(...حدّثني إبراهيم بن ميمون قال:حججتُ في أيام الرشيد...) ممّا دلّ دلالةً قاطعةً أنّ الحادثة التي تحدّد من خلالها مستوى المعيشة قد وقعت أثناء خلافة هارون الرشيد التي امتدّت من سنة:١٧٠،١٩٣هـ في سنة لا نعرفها من بين هذه السنين التي تزيد على العشرين.وسواء أوقعت الحادثة في أوّل سنة من خلافته أم في آخر سنة منها فإنّ ذلك يعني شيئاً واحداً هو أنّها وقعت في العصر العبّاسي الأوّل،وليس في الثاني. ولعلّ أحداً يرى أن يتساهل في الأمر فيتساءل عن الفرق بين العصرين فأقول:إنّه بحسبنا من اختلاف مستوى المعيشة أنّنا لم نجد في العصر العبّاسي الأوّل حوادث احتجاج على غلاء الأسعار يقوم بها العامّة،على حين أن العصر العباسي الثاني كان حافلاً بمثل هذه الحوادث.ونظرةٌ واحدةٌ على (المُنتظم) لابن الجوزي، و (تجارب الأمم) لمسكويه كافيةٌ،وتزيد على الكفاية.وبحسبنا أيضاً من هذا الاختلاف أن يُحصي ابنُ عبدوس الجهشياري واردات الدولة على عهد الرشيد فتبلغ سبعين ألفَ ألف دينار،وتعني بالمصطلح المعاصر سبعين مليون دينار على حين يروي مسكويه أنّ الخليفة المقتدر العبّاسي اضطُرّ إلى أن يأخذ من والدته (خمسمائة ألف دينار من مالها إلى مالِ بيت العامّة:لينفق في الرجال)، ولقد كان عجزُ الميزانيّة . بلغة اليوم . من الثبات بحيث نصّ المؤرخون على جهود الوزير عليّ بن عيسى في (أنّه لازم النظر بنفسه في العمل ليلاً ونهاراً،والجلوس إلى أصحاب الدواوين في الليل،وكان يسهر أكثر الليل حتّى توازن الدخل والخرج).